هذا من كان يسمّى مثقّفاً

ريجيس دوبريه

هناك الرجال العظام، تدفنهم الكلمات العظيمة، ثم يعود كل انسان الى بيته. ذلك احتفال آخر من الاحتفالات. خطب، أوسمة، تماثيل. ثم هناك الآخرون، اولئك الذين ينبغي التحدث عنهم بعد الآن بصوت خافت، كمن يحدث نفسه، بين اللحم والجلد. وهذه العظمة غير قابلة لأن تأخذ. بل اني أراها غير قابلة للانعكاس، اشبه بمسارّاة ، اسمى بشكل نهائي. ان طقوس مأتم سارتر لن تنتهي، لأن القضية ليست قضية تشييع. انني أرى الموكب هنا كلقاء ثنائي يمثله من جانب بضعة مئات من آلاف الاشخاص، وهو في المواجهة. لن تكون ثمة جادة جان بول سارتر. والمرء يتحرر من الملحمة ومن الأسطورة بأيسر مما يتحرر من همسات ذاكرة جماعية.

من ذا الذي استطاع، في هذا البلد وهذا الزمن، ان يقيم مع عصره علاقة مشابهة؟ ليس «العظيم»، رجل الفصاحات والبلاغات والكتب المدرسية. بل الحقيقي رجل الأيام والصحيفة. خيبات موجعة، سخريات من التاريخ ومن تلك النكسات كلها، الصغيرة والكبيرة، التي تصنع النسيج المجزّع ذا اللونين المتعاقبين لتلك الحقبة: ١٩٤٠ - ١٩٨٠.

ان فيلسوف ايامنا الممطرة لم يَبك، ولم يَتهّم، ولم يَقدح - بل حاول فقط ان يفهم، وان يجعل الآخرين يفهمون. وان جميع مثقفي عصرنا، من بيونس ايرس الى بيروت، انتسبوا ذات لحظة من حياتهم الى « اسرة سارتر »، بل ان خصومه أنفسهم كانوا يرون فيه عدّوهم الحميم. ذلك انهم قد تعرفوا عبره، ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، الى عصرهم، وبه دخلوا الحلبة.

انني اضع نفسي في المعمعة: ولكننا كنا اكثر من واحد في « الليسيه » في الخمسينات الذين كان «الوجود والعدم» يرعش منهم القلوب. ومن ذا الذي، بين الثلاثين والاربعين، من لم يكن له مع سارتر « جلسة استيضاح »، سواء وراء باب مغلق، او في غيابه، حتى ولو على بعد خمسة آلاف كيلو متر؟

ولقد كانت لي معه، ذات مرة، جلسة بصوت عال. حزينة كانفصال جسدين. اننا عشرات الألوف الذين دَفعَنا سارتر، ذات يوم، ومن غير ان يريد ذلك، الى ما كان يسمى سابقا «امتحان ضمير». ولو انه لم يكن «ضمير» عصرنا الأكبر، لما أزعجنا الى هذا الحّد، ولكنا تركناه معلقا مرة والى الأبد على صخرة من مرمر، إنه لم يعطنا كتابه عن «الأخلاق»، ولكنه فعل أفضل من ذلك: كان يضعنا كل مرة، على طريقته، «في موقف» عند اسفل جدار.

لقد انقضى، على ماأعتقد، زمن فلسفات الوعي والاخلاق البروتستانتية. ولقد عبر عالمنا الصغير كله عبر سارتر، لأنه كان غير قابل لأن يحاط ويُدار من حوله. وقد واصل معظمنا طريقهم. اما الذين لهم شأن مع نظرية اليوم ومع العلوم الانسانية، فسيكون لديهم كثير يقولونه في هذا الصدد، لأن التأخر فادح. ولكن ما يهم! ان الايديولوجية سلعة هالكة. والمعارف كذلك تذبل. اما الكتابة، فهي التي تصمد وتقاوم. وحين يكون مؤلف « نقد العقل الجدلي» قد اختفى، فسيبقى كتابه في التحليل النقدي عن فلوبير. وسيبقى امامنا، في البعيد، مؤلف « الكلمات » (سيرتي الذاتية) تلك الرائعة بصيغتها الأصفى، البلّورة الصخرية المقاومة لتقلبات الزمن، احدى اكثف الأبنية في لغتنا.

واذن، أهذا كل شيء: كتاب، مقالات، حضور؟ ان لكل منا ان يعمل حساباته، التي تُعمل في الحقيقة من تلقاء نفسها وفي ظهرنا. ولكن سيظل ينقص حسابات المعرفة والأدب شيء جوهري: السلوك. المعارك القلمية بغير ما خسة، العناد بلا ضغينة، التغير بغير الانكار، الجدارة بلا تصنع، الذكاء من غير ضروب المهارة، وهذا كله من غير حسابات. وما أضخمه اذ نفكر به ثانية! هو ذا من كان يسمى مثقفا. لقد احسن سارتر صنعته، صنعة قديمة وجميلة، تريد الصناعة الكبيرة ان تخرجها من اللعبة.

كان مرتبطا اكثر مما يُظن بفكرة ما عن فرنسا، لأن صنّاع الكلمات لم يكونوا الاقل نبلا في القومية. «فرنسيون » هذا ما تجيبون به عندما تسألون، سواء في كاركاس او في دمشق. «« آه ! نعم . . . ديغول وسارتر، كيف حالهما؟ » ما اعجبه عناقا بين رجل الدولة ورجل القلم اللذين لم يكن احدهما يحب الآخر، ولسبب وجيه. وتلك العداوة ايضا، هي شرف هذا البلد.

اهي فرنسا الأمس، الآن؟

لنحتفظ على الاقل بصورتها في قلب العين، ثمينة غالية. ليست هي بالتقية، ولكنها عنيفة. كإحساس بالندم، او كمطلب. او الاثنين معا.

ترجمة « الآداب »